العاشق الصغير

أُستدعيَ الآباء لحضور اجتماعٍ للوقوف على مستوى أبنائهم التعليمي ومدى تطورهم ولأخذ بعض النصائح ..

ــ شابة في الرابعة والعشرين من عمرها، ذات جمالٍ أخّاذٍ وشخصيةٍ جذّابة، ذات إطلالة شفافة تجعلها مُحَبَّبة إلى قلب كُلِّ من يراها، فما بالكم بالصغار الذين تتلمذوا على يديْها ونالوا قسطًا من وقتها .. أحد الأمهات تستفهم منها قائلة: أحقًّا أنت راحلة غدًا؟

ــ نعم هذا صحيح ..

ــ ولكن إلى أين سترحلين؟

ــ لم أقرَّر بعد إن كنت سأتوقف أم سأتابع العمل، فحالتي الصحية ليست مُستقرة .. فأنا أصاب بالإرهاق من وقت لآخر ممّا يضطرني إلى التغيُّب معظم الوقت .. إنّه العمل الذي أحب وغيابي عنه يصيبني بالإحباط .. لقد كان التعامل مع الأطفال حلمي، ولكن على حلمي أن ينتظر قليلا قبل أن يكتمل ..

ــ نعم فصحتك هي الأهم .. أعلم أنه لا يجوز لي قول ذلك، ولكن تلميذك طفلي الصغير رجاني بشدة أن أطلب منك ألا ترحلي وإن أصررتِ فإنه لن يذهب إلى النزهة غدًا ..

ــ آه .. كم أحُب هذا الفتى .. فُراقه صعب، ولكن الأصعب هو عدم توديعهم .. لم أشأ الكذب عليهم، ولم أستطع المراوغة حتى مع أطفال بسنِّهم، فقلت ما قلت لأندم .. انسكبت دموعهم لتنسكب دموعي بعدها

ــ لا تبكي رجاءً .. سوف يمضي الوقت وسوف ينسوْن ..

ــ نعم .. الوقت كفيلٌ بذلك .. سُعدت بلقائك .. نهضت ومن بعيد نادتها: سيدتي أخبريه .. إن لم يحضر غدًا فسوف أحزن ..

عادت إلى المنزل قُبيل الظهر تفاجأت عندما فُتح الباب من تلقاء نفسه .. لقد كان خلفه .. ينتظرها بفارغ الصبر .. نقلت لـه ردَّها .. قطَّب حاجبيه مزَّ شفتيه حابسًا دمعه .. اكتنفت براحتيها ساعديه: لا تتصرف كرجل كبير .. ابك وسوف ترتاح ..

ــ فلتحزن ..

ــ ماذا ..

ــ لن أذهب غدًا، فلتحزن كما سأحزن أنا، ثمَّ نفض راحتيها وأسرع إلى غرفته يزفر أنفاسه الغاضبة: لا تكن قاسيًا فلديها أسبابها ..

ـــ أنا أيضًا ..

لم يتناول غداءه وظلَّ صائمًا النهار بطوله مُلتحفًا فوق سريره .. غرفته مظلمة ولا يبدو أنّه سيخرج منها ..حاول والده التدخُّل فمنعته .. أتت تحمل شطيرة .. جلست بقربه فصدَّ عنها: أمي .. لا داعي لقلقك .. أنا رجل كبير الآن وأستطيع تدبُّر أموري ..

ـــ حقيقة أنّك في السابعة من عمرك غير أنّك في نظري أكبر من ذلك بكثير .. أنا أثق بقراراتك وأعلم بأنك ستتناول شطيرتك ولن تدعني أحزن أنا أيضا ..

ـــ تناول شطيرته .. نظَّف أسنانه ثمَّ عاد إلى سريره .. قبَّلته، وقبل أن تُغلق الباب ناداها: أمي .. أنت امرأة أقرب إلى ذوق النساء .. هل لديك هدية مناسبة أقدِّمها غدًا؟

ـــ ابتسمت: حسنًا، سأفكر وسأهديك إيّاها غدًا .. تصبح على خير .. تركته وفي الطريق نحو الأسفل خطر ببالها أن تُعطيه المنديل ليُهديه كهدية .. أسرعت تبحث عنه وتعدُّه للغد.

رنَّ جرس المنبه .. استيقظ .. استحم .. ارتدى ملابسه وتعطَّر .. إنه يومه المهم، وعليه أن يظهر بأبهى حُلةٍ ليس بحاجة إلى والدته لتعينه أو إلى أبيه لأخذ نصيحة منه، فهو يتعلَّم بالنظر ويقتنص بمهارةٍ الأفكار التي

تتماشى معه .. هو قنّاص ذكي قليل الكلام، هو طفل صغير أجل، غير أن لديه تلك الملامح التي تجعله يبدو كشاب ناضج متى أخذ الجدُّ منه مَحمله حتى إذا ما ابتسم انسابت تلك الرجولة المُختزلة في جسده الضئيل لتمتزج معًا في وعاء واحد مع رونق الطفولة .. مزيج جميلٌ أزهرت معه ثناياه بأهازيجها التي أزغبت رموز البراءة من حوله، مزيجٌ لن تملَّ النظر إليه .. إلى ابتسامته أو الاستمتاع بحديثه الذي قد لا يطول .. أن يُخرج الرجل في داخله أو أن يظلَّ طفلا ذلك منوط بإشارة منه .. طُرق الباب .. كانت والدته التي أتت خصيصًا لتقديم الهدية التي أوصى بها .. علبة بحجم الكف مُغلفة بشكل راقٍ وعلى ظهرها بطاقة رافقتها مكتوب عليها: "أحبك ولن أنساك أبدا" ..

ــ ما رأيك بها؟

ــ هزَّ رأسه .. تناول إفطاره ثمّ غادر ..

استمتع الجميع بجوِّ النزهة المرح ماعداه، فبينما كان الصغار كلُّهم يحيطون بمعلِّمتهم الغالية التي ستفارقهم كان مُنعزلا عنهم وعنها وهي الأقرب إلى قلبه .. واجمًا صامتًا لا يشارك أحدًا ولا يسمح لأحد أن يشاركه لا أن يرافقه .. يسير وحيدًا في آخر الصف غير مهتم بما يجري حوله .. باله مشغول .. وأكُفّه لا تفارق جيوبه .. أيقنت بأنه لا يزال غاضبًا منها

فتصرفاته الغريبة جعلتها تلحظ ذلك، فمنذ متى يصدُّ عنها لا يريد التحدُّث معها أو الاقتراب منها .. لقد اعتاد منها التدليل قليلا، فهو المفضَّل لديها إلا أنها اليوم لن تُعامله مُعاملة مختلفة عن البقية .. قرارٌ تراجعت عنه سريعًا .. تركته على أن تُناديه لاحقًا لجبر خاطره ..

جلس الجميع قرب كوخ صغير عند حافة المتنزه .. وبعد تناول طعام الغداء قرأت إحدى المعلمات قصة أنصت لها الكل سواه، فقد كان انتباهه مُنصبًا على معلِّمته التي بدا عليها الإرهاق .. استأذنت صديقتها لأخذ قسط من الراحة .. لحظات وعلا جرس هاتفها النَّقال .. طلبت من الصغار الانتظار قليلا ريثما تعود إلا أنَّه تكفَّل بإيصاله لها .. كانت هناك مُستلقية على أريكة خشبية خلف كومة من الأشجار .. وقف يتأمَّلها .. لان جموده وانكسر غضبه أمام المرأة التي ستفارقه وربما لن تلقاه .. دقائق مضت .. ملامح الجِدِّ عادت .. عاد معها الشاب الذي استدعى قواه وألَّب شجاعته .. ثوانٍ ثمَّ دنا منها .. قبَّلها بشفاهه الصغيرة التي ما كادت تفارقها حتى شخصت عيناها .. انحسرت إلى الخلف تنظر إليه مذهولة وبأناملها خبَّأت مبسمها .. لم تصدِّق ما جرى: هل قبَّلتني أم أنني أتخيَّل ذلك؟

ــ ضربات قلبه المرتبكة تقرع داخل جسده الضئيل ناقوس الخطر .. فلا يبدو أن لقُبلته ذلك الوقع المريح على محيّاها وقد صدق حينما صفعته فأوجعته إثر إجابته ..

ــ لم ينبسا ببنت شفه، بل ظلا ينظران إلى بعضيهما .. منهم من يكابد دمعه ويحتبس الألم ومنهم من تغلَّب على دهشته، سألت بلهجة حادة: لِمَ قَبَّلتني؟

ــ لأني .....

ــ صمتت للحظة ثمَّ أردفت بحدة: ولكنَّ ذلك لا يعني أن تقبِّلني .. هناك حدود، فأنا مُعلمتك ..

ــ بجرأة أجاب مُعترضًا على ردة فعلها: أرى أمي وأبي يفعلان ذلك من حين إلى آخر ..

ــ إنهما متزوجان ..

ــ وما الزواج إلا علاقة بين رجل وامرأة ..

ــ هه .. نعم، إلا إنها علاقة مقدسة .. فهما لا يستطيعان فعل .. فعل ذلك الشيء إلا بعد أن يُسلكا طريقا معينة .. لديك الكثير لتتعلَّمه ..

ــ إن كُنت مُخطئًا لأني قبَّلت المرأة التي أحُب فهما مخطئان أيضا ..

ــ صعقتها جُرأته ودُهشت مُجَدَّدًا إثر إجابته: أنا لست مجرد معلمة بالنسبة لك .. أليس كذلك؟

ــ نعم .. أنتِ لستِ كذلك.. فأنا أحبك ولا أستطيع العيش من دونك ..

ــ كركرت مُردفة: لقد سمعت هذه الكلمات .. من أي مسلسل التقطتها؟

ــ ولماذا .. ألم تخبرينا يومًا أن نلتقط ما هو جميل من حولنا ونوظِّفه في حياتنا ..

ــ أجل .. لقد قُلتُ ذلك .. غير أنك وظَّفت الكلمات الصحيحة في التصرف الخطأ ..

ــ ربما أنَّ ما فعلته خطأ ولم أستوعبه جيدًّا وربما أنني طفل على عاتقه الكثير ليتعلَّمه إلا أنني صادقٌ في مشاعري وصدقيني حين أقول بأني أحبك

ــ لم تنطق، بل ظلَّت تنظر إليه مشدوهة تفتكر بحال تلك الكلمات الجميلة من أين أتى بها ..

ــ انتظريني ..

ــ ماذا؟

ــ انتظريني .. يومًا ما سأغدو شابًا وستقبلين بي .. لا ترحلي .. إنها بضع سنين فقط والوقت يمضي بسرعة ..

ــ أنت جاد؟

ــ نعم أنا جاد ..

ــ لحظات ثمَّ هبطت إلى مستواه .. تمعَّنت صورتها في سواد ناظريه، قالت وكانت قد هدأت: وهل تحبُّني حقًّا؟ فهزَّ رأسه: وماذا تعرف عن الحب؟

ــ ربما أنه الشعور بالألفة والراحة .. ألا تملَّ رُؤية من تُحب .. أن تُحبَّه سواء أكان جيدًّا أم سيئا..

ــ من علَّمك تلك الكلمات؟

ــ أمي، غير أني أجد بأن الحُب يتعدّى هذا الخط، إنه شيءٌ أستطيع الشعور به ولا أستطيع وصفه ..

ــ كلمات كبيرة تصدر من فمٍ صغير .. وكم من السنين عليَّ أن أنتظر حتى تغدو شابا؟

ــ بتلهَّف: بضع سنين فقط .. ربما عشر أو خمس ..

ــ أنت تحتاج إلى خمس سنين لتصبح مراهقًا وعشر لتنمو شابًا وعشر أخرى لتنضج رجلا حينها سأكون عجوزًا ولن تطيق النظر في وجهي ..

ـــ جعلت تترقَّب إجابته – التي طال بحثُه عنها – بفارغ الصبر:

عليكِ أن تنتظري لتتيقَّني بنفسك..

ـــ ابتسمت: ولكني لا أستطيع انتظارك .. عليك أن تنساني ..

ـــ لماذا؟

ـــ اكتنفت راحتيه قائلة:لأني لا أستطيع أن أبادلك المشاعر ذاتها، فأنت بالنسبة لي .. كنت ولازلت طفلي المُحبَّب ..

ـــ بحدة وانفعال متلازمين نزع راحتيه: ذلك ليس عدلا .. أن تعامليني كطفل صغير وألا تأخذي مشاعري على محمل الجد .. لو كنت الآن في مثل سنِّك لما كان هذا كلامك ولكن أتعلمين .. أنا مجرد طفل وأنت محقة .. فماذا يعرف طفل عن الحب سوى الدمى وقنوات الكارتون .. دفع إليها بهاتفها النقال وركن هديتها جانبًا ثمَّ ابتعد ..

لم تلحق به، بل جلست لدقائق تفكِّرَ فيما جرى منذ قليل .. الرجل الصغير الذي كان يحاورها .. غرابة الموقف .. ردة فعله وردة فعلها .. رنَّ جرس هاتفها .. صديقتها تستدعيها فقد حان موعد المغادرة .. كان الجميع هناك سِواه .. بحثوا عنه طويلا حتى عاد من تلقاء نفسه .. أثر الدموع التي انهمرت لم تستطع الانحسار خلف شواطئ رجولته المبكرة .. شعرت بالأسى حاولت التفريج عنه بتقديم الهدايا .. ألبست فتياتها قبعات

وللفتيان ربطات عنق عقدتها لهم، أمّا هو فقد أبى وحاول ربطها بنفسه .. حاول كثيرا وفي كلِّ مرة يفشل حتى ضحك منه أحد زملائه .. هجم عليه وأخذ يضربه .. لقد كان غاضبا، وقد وجد الطريقة المُثلى للتنفيس عن طاقته المكبوتة .. ولا يزالا حتى فرَّقت بينهما إحدى المعلمات وبَّختهما قولا وفعلا وأجلستهما منفصلين منعزلين عن البقية في آخر الحافلة .. استأذنت زميلتها ثمَّ همست للسائق فكان لها ما أرادت .. كان هو آخر الواصلين إلى منازلهم .. انتظرته حتى إذا ما مرَّ بجانبها قدَّمت له ربطة العنق التي رماها .. لم يُلق بالا لها واستمر في طريقه غير أنَّه تراجع: إن لم تقبل بهديتي فتعال خذ هديَّتك .. التفت إليها ثمَّ تمعَّن في الكفَّتين .. مدَّ يده لأخذ هديَّتها: عليك أن تعانقني في البداية قبل أن تأخذها .. لم يُحرِّك ساكنًا .. اجتذبته إليها .. ضمَّته إلى صدرها .. همست له: لن أنساك فلا تنساني .. حاولت أن تداعب غرَّته فحسر رأسه .. نصحته بوجه طلق:

عِش طفولتك ولا تتصرف كرجل كبير .. ها ..

كانت تتمنى أن يفترقا بابتسامة ..

إلا أن وجهه البائس الحزين ..

كان آخر شيء تتذكره ..